الفرسان الالمان في سورية

للاب اميدي لوريول اليسوعي

انَّ ألسنة الجرائد لا تزال منذ اشهر تحدث القرّاء عن قدوم جلالة القيصر الالماني الى اخاننا الشرقية فتراها تسترسل في الكلام عن صفات هذا الرجل العظيم وتطنب في محامده وتلهج في مديحه كما انَّها تصف وصفاً مُسهباً التهيئات الفاخرة التي تقدَّمت بإجرائها الحضرة العلية الشاهانية حفاوةً بضيفها الكريم

هذا وقد احببنا نحن ايضاً في هذه الفرصة ان نحيي اثرًا قديماً كان في انشائه لالمانية الكاثوليكية في المشرق مجدٌ اثير لنصارى القرون المتوسطة خير كبير. ألا وهي رهبانيةُ الفرسان الالمانيين (Chevaliers de l'Ordre Teutonique) التي نشأت في فلسطين واتسعت الى انحاء الشام فصار لها بين رهبانيات ذلك العهد المقام الحسن. ومقصدنا في هذه الكلمة الموجزة ان نشير الى تاريخها مجملاً مع ذكر بعض مآثرها في سورية

١ في نشأة رهبانيَّة الفرسان الالمان في سورية

نشأت هذه الرهبانيـة في اواخر القرن الحادي عشر في القدس الشريف وكانت نجمت فيها عدَّة رهبانيات أخرى غايتها اسعاف ذوي البأساء وتمريض اصحاب العاهات على اختلاف اديانهم وطوائفهم وايواء الغرباء المقطوعين والذبّ عن حقوقهم في سلوك طرقهم. وهذه الهيئات الدينية لما كلها الاعمال المبرورة والمآثر المشكورة كفى باسمها إشارةً الى مبرّاتها كفرسان مار يوحنا المعروفين ايضاً بفرسان رودس وفرسان مالطـة ويدعوهم العرب بالاسبتلار (Hospitaliers) وكفرسان القديس لمازر المعتنين بخدمة البُرص وفرسان القبر المقدَّس المدافعـة عن قبر المسيح. وفرسان القديسَيْن قزما ودميانوس لفكّ أغلال الأسرى وافتدائهم بالدراهم وكفرسان الهيكل الذين ورد ذكرهم مرارًا في تواريخ العرب وهم يدعونهم بالدراويّة ويطرئون حماستهم. وكانت هذه الرهبانيات تمُدّ كلّ طوائف العرب فتقبل اعضاء من أمم شتّى كما انَّها تسعى في سبيل صلاح الجمهور بقطع النظر عن اجناسهم واوطانهم

بيد انهُ لَمَّا كانت جموع كثيرة من الالمان تهرع لزيارة الاراضي المقدَّسة اخذت تضيق بهم المآوي في اورشليم وهم مع هذا ينطقون بلغةٍ لم يدركها سواهم من الفرنج فاصابهم لذلك بعض العناء في تحصيل معاشهم آونة تَكْثُرهم في بيت المقدس وأداء فرائضهم الدينية فيها. فاحسَّ بهذا الخرق رجلٌ من اشراف الالمان من آل الثروة كان توطَّن بيت المقدس هو وزوجتهُ فتحفَّز لرتقهِ وتلافى الخلل بان خصَّص كنيَّة وافرة من المال لانشاء مأوًى لا يسكنهُ سوى مواطنيهِ الالمانيين. فما نجز بعد زمن قليل مشروعهُ الخطير حتى صار ذلك المقام مقصدًا لعامَّة زوَّار المانية. وكان في ضمن المأوى كنيسة متَّسعة الارجاء دشَّنها بطريرك اورشليم ودعاها كنيسة السيدة مريم الالمانية (١). ولما كان موقع هذه الكنيسة على جبل صهيون دُعيت ايضًا بسيِّدة جبل صهيون ولقَّبت رهبانيَّتهم بفرسان سيدة صهيون. فهذا الاثر القديم هو الذي حمل الالمانيين مؤخرًا على ان يسترخصوا في السكنى على هذا الجبل ليحيوا بذلك ذكر مفاخرهم السابقة

فسمع احبار رومة العظماء ببناء مأوى الالمانيين فسُرُّوا لذلك سرورًا عظيمًا ومنحوا الانعامات الخاصَّة لذويهِ. وكان يترأسهُ السيِّد الذي انشأهُ وصرف عليهِ مالهُ للقيام بشؤونهِ. ولكن لم يلبث ان أنفد مالهُ تمامًا فاضطُرَّ الى طلب الصدقات من المحسنين فجمع منها جانبًا امكنهُ من القيام بامر الزوَّار اخوتهِ. بل تأثَّر بعض اصحاب الخير من غيرتهِ المضطرمة في سبيل البرّ فتتلمذوا لهُ ونبذوا ملاذَّ العالم ليخدموا الفقراء والمرضى على مثالهِ وابرزوا لذلك نذرًا خصوصيًّا. فعملت سيرتهم الصالحة في قلوب كثير من اعيان الالمانيين نزلاء فلسطين فزهدوا في العالم ولبسوا الثوب الرهباني وصرفوا مالهم في وجه الله وسبيل الخير

ثمَّ لَمَّا رأوا انَّ كثيرًا من الالمانيين الذين يتجشمون الاسفار الى بلاد فلسطين ربَّما احاقت بهم الاخطار في طريقهم تعهَّد الاخوة على ان يحاموا عنهم ويردّوا غارات المعتدين عليهم. فدُعوا لذلك بفرسان الغُدَّة الالمانية وكان هذا نحو سنة ١١٢٢ مسيحيَّة. واثبت البابا وان سيلستين الثاني وأدريان الرابع هذه الرهبانية الجديدة ببراءتين اطلقا فيها اللسان بالثناء على اعضائها

---

١ راجع تاريخ المشرق ليعقوب دي ڤتري الجزء الاول الفصل ٦٦

٢ في نموّ رهبانيّة الفرسان الالمان وازدهارها في سوريّة

فلم تعثم رهبانية الفرسان الالمان بعد ما حازتهُ من الحظوى والالتفات لدى الاحبار العظماء ان تمتدّ وتنتشر فاضحت على مثال الحبّة الانجيلية شجرةً باسقة الافنان وارفة الظلّ طيّبة الاثار فابتنى اصحابها مستشفيات واسعة ومآوي رحبة للغرباء في مدن فلسطين وسوريّة لاسيما في عكة

فبقي امر الفرسان الالمان على احسن حال واسمى مرام الى ان تبدّدوا سنة ١١٦٧. ولمّا بلغ ساحل الشام فردريك دي سُواب ابن الملك فردريك بَرْبروس كان اوّل ما فكّر فيهِ ان يجمع امرهم فتمكن من ذلك واخذ الفرسان يهتمّون بالجرحى والمرضى النصارى . وقد امتاز بينهم رجال من شرفاء مدينتي لوبيك وبريم ادّى بهم حبّهم للقريب الى ان يبذلوا النفس والنفيس في تمريض ذوي العاهات

وفي تلك الاثناء اقام فردريك مركزًا لرهبانية الفرسان الالمان في مدينة عكّة الحريزة وبنى لهم هنالك ديرًا كبيرًا ومستشفى يسكنونهُ ويمرّضون فيهِ ذوي الاسقام سنة ١١٩١ . وكان موقع هذا المستشفى جنوبي المدينة بقرب الباب المعروف بباب القديس بيقولا وكان قبلًا يخصّ الارمن فخرب فاعطاهُ الملك غي دي لوسينيان مُلكًا للفرسان الالمان . وسنّ لهم فردريك سننًا انتخبها من قوانين الاسبتلار وقوانين الدواويّة وفقًا لغايتهم

ثم كتب ملك الالمان الى البابا سلستينوس الثالث يطلب اليهِ ان يثبت هذه الرهبانية بسلطتهِ العظمى فاجاب الى طلبتهِ ببراءة ابرزها في ٢ شباط سنة ١١٩٢ وعيّن للفرسان قانون القديس اوغسطينوس وقسم الرهبان الى ثلاثة اقسام منهم كهنةٌ لا يعتنون الّا بالروحيّات ومنهم فرسان من البيوتات الشريفة للمدافعة عن صوالح الزوّار ومنهم اخوةٌ شأنهم مساعدة الفيئتين الاولين في امورهما. واختار للرهبان كثوبهم الخاصّ شملةً بيضاء يزينها صليبٌ اسود اللون مفضّض الحاشية

وكان عدد هؤلاء الفرسان بادئ بدء محصورًا لا يتجاوز الاربعين عدًّا لكنهُ بعد زمن قليل أُلفيت هذه السنّة فاخذت الرهبانية بالازدياد وغا عددها غوًّا كبيرًا حتى انتشرت في انحاء الشام لاسيما سوريّة الجنوبية . وكان اوّل من اقيم رئيسًا عامًّا على هذه الرهبانية في عكّة رجلٌ من فضلاء عصرهِ يُدعى هنري قَلْبوت دي بَيْنهَيم وكان وَلُوعًا بصالح جمعيّتهِ

فحسن حالها وتوفّى دعائمها وتبرّع عليها المحسنون بمالٍ وافر واقتطعوا رهبانيتهُ الاقطاعات الواسعة ومما نالهُ من الانعامات ان يزيّن اربعة اطراف ثوبهِ بزهرة السوسن(lleur de lis) وهي شعار ملوك فرنسة. وكان من عادة هؤلاء الفرسان ان يجتنبوا ثلاثة افراس مطهّمة ويصحبهم سلاحدار يحمل رمحهم وترسهم

صورة الفرسان الالمان ولبسهم

وقد بلغت هذه الرهبانية اوج عزّهـا في ايّام رئيسها الكبير هرمان دي سلزا. وكان هذا من مشاهير قومهِ مزدانًا بصفات عديدة ومزايا فريدة ذا فضل وفضيلة فكلّفهُ اخوتهُ عبء الرئاسة سنة ١٢١٠ فنهضَ بهِ اتمّ النهوض. وقد ذُكرت لهُ مآثر تنبئ بما طُبع عليهِ منذ نعومة اظفارهِ من الصلاح والبرّ فبرّز بين اخوتهِ لا يُشقّ لهُ غبار ولا يوطأ لهُ مضمار مع حميّة دينية لم يُساوهِ فيها احد

وعُني بتوسيع نطاق رهبانيّتهِ ومن جملة ما اقتناهُ لها من الاملاك سنة ١٢٢٠ قرية المَلَية وهو القصر المعروف بقصر الملك ابتاعهُ من الكنت دي هنبرغ اوثون بسبعة آلاف

من الفضة. وكان لهذا القصر مزارع وقرى يبلغ عددها سبعة وثلاثين مكانًا. وفي سنة ١٢٢٨ استملك قصرا خربًا يدعى مُنفور (Monfort) فرممهُ واحلَّ فيهِ رهبانهُ وجعلهُ حصنًا منيعًا لا يطمع فيهِ طامع وضع فيهِ سجلاَّت الرهبانية وكنوزها. وهذا الحصن هو الذي يُعرف عند العرب بقلعة قُرَين ذكرهُ مرارًا في تواريخهم وكان موقعهُ على جبل بقرب ساحل بحر الروم جنوبي وادي القرن ليس بعيدًا من صفد. ومن جملة املاكهم في بلاد البشارة كفر ياسين وصفد والبطَّة وغير ذلك. ولمَّا صارت الرئاسة الى حنُّو دي سَنْبِرهَرْن اتَّسعت املاك الرهبانية في جنوبي لبنان فكان لهم في الشوف جزّين والجدَيدة وتيرون وبكاسين وقَيتولة وفيحا والمختارة وكفر نَبْرَخ ودير القمر وكفرفاقود والفريديس وعين زحلتا وبعقلين والدوير واللويزة وديركوشي وقُرْنَيْه والمُغيثة والكنيسة وغيرها

٣ في اواخر رهبانية الفرسان الالمان

انَّ احوال هذه الدنيا كما لا يخفى دُوَل يوم لك ويوم عليك. ولمَّا كانت سنة ١٢٧١ اسلم الفرسان الالمان حصنهم القُرَين على الامان ورحلوا الى عكَّة. ولحسن الطالع لم يُفقد شيء من سجلاَّتهم الثمينة التي كانت مودعة في القرين وهي اليوم في مكتبة برلين الملكيَّة

وبقي الفرسان الالمان في عكة الى سنة ١٢٩١ فركب قسمٌ منهم البحر الى قبرس فسكنوها مدَّة. امَّا اكثرهم فأبحروا الى اوربَّة واجتمعوا باخوتهم من الفرسان الذين كانوا توطَّنوا منذ نحو خمسين سنةً بعض جهات المانية الشمالية الَّا انَّهم وجدوا هناك قومًا من قدماء عَبَدة الاصنام البرابرة من اهل الغزوات الذين طالما هجموا على ممالك النصارى فأسروا ونهبوا. فجاهرهم الفرسانُ القتال سنين طويلة حتى قهروهم وفتحوا بلادهم واتَّخذوها لهم ملكًا يستغلُّون اراضيها ويستثمرون خيراتها

فلم تلبث هذه البلاد تحت حكم هؤلاء الفرسان ان تجاري بقيَّة الاقاليم الالمانية حضارةً وفلاحة فعُنوا بفلاحة الارض وشيَّدوا القرى ومدَّنوا المدن الواسعة في جهات ليڤونيه وسواڤية والكورلند فزهت بعد حين شجرة الدين وبسقت افنان الآداب والعلوم وانجلت عُقَل الاوهام والجهل عن قوائم العقول. وكان الفضل في ذلك كلهِ لرهبانية الفرسان الالمان

اما بقيّة اخبار هؤلاء الفرسان منذ ذلك العهد الى سنة الغاء رهبانيّتهم سنة ١٨٠٩ فأمرٌ معروف لا حاجة الى ذكرهِ هنا. وما البقاء الّا للواحد القيّوم (١

علّة القرن الاحمر في دود التز

للشاب الاديب سليم افندي اصمر

انَّ هذه العلّة قديمة العهد في سوريّة وتعرف فيها باسماء مختلفة لان منهم من يسمّيها علّة القرن الابيض وغيرهم علّة الخرطوق والبعض علّة سكردينو تعريب المُسكَرْدين (Muscardine). ولم يكن احدٌ في هذه البلاد قبل السنوات الاخيرة ليخاف منها شرًّا بل كانوا يعدّون ظهورها كعلامة الاقبال ويطمرون الدود المُصاب بها في وسط الاطباق. فلمّا تكرَّر منهم هذا العمل على سنوات كثيرة بظروف واحوال مُساعدة على سرعة انتشار العُدْوى جاء من اقوى العوامل على سريان المرض واشتداد فتكهِ في الجبال وفي سهول بيروت لاسيَّما في مواسم السنوات الثلاث الاخيرة وخاصّة في موسم السنة الجارية

وقد بلغ تفشّيهِ مبلغًا عظيمًا فلم تقتصر الخسارة الى نقصان في وزن الشرانق بل قد رأيتُ بعيني اخصاصًا برمّتها اتلفتها هذه الآفة الخبيثة التي كان مربّو الدود في اوربّة يحسبونها قبل ظهور المرض الفلفلي او الزعراني اعظم علّة تصيب المواسم. ولهذا فان بعض الملّاكين في لبنان ليأسهم من استئصال الداء عدلوا عن تربية الدود وتحوّل عنائها مؤثرين عليها بيع ورق التوت وكان الواجب على من وصفنا لهم العلاج ان يعمدوا الى استعمالهِ وتجربتهِ بدلًا من ان يتعلّلوا باذيال اليأس الذي هو مضرّ بعوالمهم وصوالح البلاد

ولعلّهم متى اطلعوا على طبيعة المرض ووسائل انتشارهِ وسهولة توقيف سيرهِ تنتعش

---

١ راجع الكتب الآتية التي اختصرنا عنها مقالتنا: Rey: *Colonies franques en Syrie*; id., *Monuments de l'Architecture militaire des Croisés en Syrie*; Conder: *Survey of W. Palestine, Memoirs*; Rhöricht: *ZDPV*, X, 26, ; *Tabulae Ordinis Teutonici*; Darras: *Hist. Eccl.* XXIV et XXVII, etc.